صفحة تصدر بالتعاون مع الجمعية النفسية العراقية
iraqipa@hotmail.com

المشهد النفسي

الحول الإدراكي.. في العقل العربي

أ.د.قاسم حسين صالح

تصنف العقول من حيث بناؤها الادراكي إلى صنفين:عقول ببنى نفيذة، تمتاز بالمرونة والانفتاح على الخبرة والمعارف والأحداث الجديدة، وعقول غير نفيذة تكون مغلقة ومتصلبة وجامدة.

والغالب في العقل العربي أنه من الصنف الثاني.فهو سكوني لا يحب التغيير، وبسيط في محتواه المعرفي وأحادي الاتجاه في تفسير السلوك والمواقف والأحداث.

ويقدم علم النفس تفسيراً لطيفاً بقوله: إن نوع البنى التي يتكون منها العقل هو الذي يحدد توقعات الشخص بخصوص سلوك الآخرين نحوه وسلوكه نحوهم.

فإذا كانت من النوع النفيذ فانه-بحكم ما يمتلكه من ذخيرة ثرية من المعلومات والمعارف- يكون منفتحاً ومرنا ومعتمدا الحوار وسيلة للتعامل مع الآخرين. وإذا كانت من النوع غير النفيذ، فإن صاحبها يكون محكوما بخزين خبراته القديمة، وخشن التعامل مع الآخرين، وقد يتصرف معهم بشك وريبة و((بارانويا)) اضطهادية.

وعقلنا العربي- بشكل عام- عقل مصفوفات وقوالب جامدة، يقسم الناس إلى صنفين:(نحن وهم) يرى في أل (نحن) كل المزايا الجميلة والصفات الراقية في حين يرى في أل(هم) كل ما هو قبيح وسلبي، ويرى في مواقف(نحن) إنها هي الصحيحة وإنها الحق بعينه، بينما يرى في مواقف(هم) إنها الغلط بعينه.

والتشخيص النفسي لهذه الحالة، أن هذا العقل مصاب بـ(حول) إدراكي.فحوله الخارجي لا يريه في أل(هم) أية صفة إيجابية أو سلوكا مهذبا أو شيئا جميلا.وحوله الداخلي لا يريه في أل (نحن) أية صفة سلبية أو سلوكا سخيفا أو موقفا خاطئا.

والعلة في ذلك أن العقل العربي (السلطوي لأسبابه، والشعبي لأسباب مختلفة) متشكل من صور نمطية، أو قوالب إدراكية تتضمن تعميمات ساذجة ذات وجهين ابيض مشرق جميل بخصوص(نحن) واسود قاتم بخصوص (هم).

لنأخذ مثالا صريحا واقعيا من العراق عن(الصور النمطية) لدى كل من السنة والشيعة إزاء بعضهما. فهي في العقل السني العام(العراقي إلى حد ما، والعربي إلى حد أبعد) تعزو الصفات السلبية للشيعة بأنهم متخلفون، متزمتون، يصلحون للأمور الخدمية لا للسياسية، يكرهون السنة ويحقدون عليهم(وهي آلية إسقاطية). في حين يضفون على أنفسهم الفضائل والصفات الإيجابية والخلو من العيوب. وكذا الحال في الصورة النمطية المتشكلة في العقل الشيعي الشعبي.فهي تعزو الصفات السلبية للسنة: قساة، ظالمون، متكبرون، يكرهون الشيعة ويحقدون عليهم(نفس الآلية الإسقاطية). ويضفون على أنفسهم الأخلاق و الفضائل والخلو من العيوب.ومثل هذا (الحول) في أمور أخرى، موجود في كل المجتمعات العربية من موريتانيا إلى الكويت من دون استثناء.

وفي اجتهادي أن هذا (الحول) الإدراكي في العقل العربي، واحد من أسباب مآسينا وتخلفنا أيضا.وانه مالم يتم علاجه عن طريق تغيير المناهج الدراسية وتحريرها من التسييس واعادة صياغة ثقافتنا وخطاباتنا الإعلامية والدينية، فاننا سنبقى نتعارك والعالم يضحك علينا، فاكثر مشاهد الكوميديا سخرية تلك التي يتعارك فيها اكثر من فريقين من (الحولان) !

عندما تصبح (توقعات) العراقيين سلوكاً دفاعياً ضد القلق

علي كاظم الشمري
جامعة واسط

يصنف (التوقع) Expectancy في علم النفس، ضمن أوجه النشاط العقلي الذي يتبناه المنظور المعرفي.فقد أشار علماء النفس المعرفيون الرواد إلى وجود هذا المتغير النفسي، ثم توالى اهتمام الباحثين اللاحقين به، مما أدى إلى تراكم غني في فهم الأسس الوظيفية الذهنية والانفعالية والسلوكية له.وليس من المغالاة القول: إن موضوع التوقع يتمتع بجاذبية قل نظيرها في موضوع آخر مثله في علم النفس عموماً، وفي منظور التعلم الاجتماعي المعرفي بوجه خاص.

•لدى الفرد العراقي ميل واضح لإطلاق التوقعات الاعتباطية، والابتعاد عن توظيف الأدلة في إطلاق الأحكام

فليس هنالك ما يفتن الفرد مثل موضوع التكهن بالغيب، وماذا سيحدث غداً وفي المستقبل.وذلك باعتقادنا ناجم عن الخوف الإنساني الجمعي من المجهول، إذ تعود الإنسان على أن يحقق المستحيلات ويغير الأقدار على المستوى التخيلي إن لم يكن قادراً على ذلك في الواقع، ما دام في ذلك شيء من الاستقرار النفسي وطمأنة للذات. ولو عدنا للتأريخ، لوجدنا أن تلك الظاهرة جاءت ملازمة للبشرية منذ نشوئها، إذ كان العرف السائد في الحضارات الأولى والوسطى، أن يقوم الكهنة بالتكهن بالأحداث والتنبؤ بنتائج الحروب ومصير الملك أو الإمبراطور، وما شابه ذلك.ويمكن القول أن (التكهن) هو الجذر التاريخي للتوقع. ولكن الأول لا يقبله أهل العلم حالياً لكونه يعتمد على الحدس أو الحس الغريزي، بينما الثاني يعد إلى حد ما مفهوماً علمياً معرفياً.إلا أنه تجدر الإشارة أيضاً إلى أن بعض العلماء في المنهج التجريبي النفسي يعدون(التكهن أو الحدس) واحداً من مصادر الفروض حول سببية الظواهر، التي لا تثبت علمياً إلا بعد خضوعها للاختبار.

وبعيداً عن هذه الرؤى الفرعية، يمكن تحديد المفهوم النفسي السائد حالياً للتوقع، بأنه (عملية أو دالة على نشاط عقلي داخلي يختص بتخمين حدوث شيء ما أو تكراره عند وجود مؤشرات معينة). وبناءً على هذا، نستطيع الافتراض أن التوقع كأي عملية عقلية أو سمة شخصية، يتباين في ظهوره ودرجته بين الأفراد. ولذلك، فهو في درجته المتوسطة متوفر لدى النسبة العظمى من الأفراد، وهو توقع يتصف إلى حد ما بالواقعية والاعتدال.أما التوقع بدرجته الدنيا فهو قد يكون مؤشراً لفرد ذي شخصية من النمط المتزمت الملتزم بالأدلة المادية المحسوسة بدرجة عالية، أو يكون مؤشراً للامبالاة وضعف التحسس وقلة الانشغال بما يصادفه الفرد من أحداث، أو قد يكون مؤشراً على ضعف في مستوى بعض عملياته العقلية كالإدراك والتفكير والاستنتاج.أما التوقع في الجانب الآخر المتطرف نحو الارتفاع، فإنه يمكن أن يكون مؤشراً على وجود قدرة عالية قد تصل لدى أفراد معينين لدرجة خارقية، يكونون معها متميزين عن الآخرين بالقدرة على التنبؤ بحدوث الأشياء.والملاحظة المفيدة التي يمكن استخلاصها من هذا التسلسل المفترض، هي أن التوقع بدرجته الدنيا والوسطى يمكن بحثه ضمن الإطار العلمي النفسي المعرفي، بينما يمكن عد التوقع بدرجته العليا ضمن الإطار الباراسايكولوجي أو الخارقي .

وقد جاء اهتمامنا بالموضوع بناءً على ملاحظتنا لما ساد في الشارع العراقي مؤخراً من كثرة التوقعات التي يطلقها الناس نحو مسارات الأحداث في بلادهم، لاسيما الشباب منهم، إلى الدرجة التي أصبحت فيها هذه التوقعات تؤثر بعمق في سلوكهم وتعاملهم اليومي مع المحيط.ويلاحظ أن الطابع الاجتماعي العام لهذه التوقعات صارت تغلب عليه الوظيفة النفسية الدفاعية، أكثر من كونه نشاطاً ذهنياً استنتاجياً يقوم على معطيات محددة. فالفرد العراقي يعيش اليوم حالة من التخبط والحيرة والقلق، فهو بين محتل لا تعرف أهدافه، ومسلحين من الخارج والداخل لا تعرف مقاصدهم، وأحزاب سياسية وشخصيات غير واضحة المعالم والنيات والأهداف.فبات يشعر بأن الساحة أمامه غامضة، لا يملك لها أجوبة منطقية، مما يجعله يلجأ إلى اختراع أي استنتاجات ممكنة.فهو إزاء النقص الموجود لديه في المعلومات ليس بوسعه إلا اللوذ بالتوقع بوصفه (آلية دفاعية) قد يتمكن من خلالها خفض قلقه واستعادة اتزانه النفسي، كمن يأخذ مسكنا وقتيا للألم من دون أن يغير من العلة شيئاً، فنراه منشغلاً بالدخول في حوارات وتحليلات ومناقشات في المقاهي والحافلات وأماكن العمل والبيوت، يقدم فيها توقعاته، وكأنه يعرف ما ستسفر عنه الأحداث مستقبلاً، وهو في الحقيقة لا يتوفر لديه إلا النزر اليسير من المعلومات اللازمة للاستشراف.

ويقدم بعض الباحثين تفسيراً قد نتلمس فيه شيئاً من الصدق، مفاده أن المجتمعات التي تسودها الثقافات الروحانية والغيبية، غالباً ما يطغى على إنسانها طابع (الحدس) أكثر من اعتماده على القراءة المستندة لحسابات الواقع والمنطق والتفكير العقلاني. فمثل هذه المجتمعات يرجح أن تكون وجدانية أكثر منها عقلانية، وهي حبيسة الماضي كثيرة التشبث به، وبعيدة عن استشراف المستقبل والتطلع إليه.كما يرجح أن تكون محملة بعقد الماضي، كالخوف والشعور بالنقص والذنب في آن واحد. فهي بدلاً من أن تثور على واقعها وتحاول إيجاد سبل للتغيير أو الشفاء، راحت تفعل العكس فخضعت واستكانت تحت وطأة العجز والشعور بالتبعية والذنب.وفوق ذلك قد تسعى جاهدة لإيجاد مختلف المبررات والحجج التي تسوغ بها مآسيها.

و نجد أن هذه الخصائص تنطبق على الكثير من المجتمعات الشرقية المغلوبة على أمرها، ومنها مجتمعنا العراقي الذي نتلمس لدى أفراده من مختلف الفئات ميلاً واضحاً لإطلاق التوقعات المتسرعة القائمة على حدس اعتباطي، وابتعاداً صريحاً عن توظيف الأدلة والقرائن الواقعية في إطلاق الأحكام حول القضايا الملحة التي تقع في صميم الحياة الفردية والجمعية للعراقيين، إلى الدرجة التي

•حين تسود الثقافة الغيبية ينحسر التفكير العقلاني ويطغى طابع (الحدس) على الإنسان

•المجتمع الذي تسوده التوقعات الدفاعية بدل الاستنتاجات الواقعية، مكانه متاحف التأريخ

تستأهل التوقف عند هذه الظاهرة وتفحصها عن كثب.وهذا ما فعلناه بإجرائنا مقابلات مفتوحة مع عينة واسعة التمثيل من الأفراد بمدينة (الكوت) من كلا الجنسين، استطلعنا آراءهم بمدى تفشي ظاهرة إطلاق التوقعات هذه في المجتمع.وقد أظهرت محصلة الآراء والنتائج أن أفراد العينة بدأوا يلحظون بالفعل زيادة في التوقعات لديهم مؤخراً، وعبروا عن ذلك بأنهم كلما خاضوا بحديث عن أوضاع البلاد وما يجري في الشارع العراقي وعملية تشكيل الحكومة... وغيرها، حتى يجدوا أنفسهم في خضم حديث مفعم بمختلف التوقعات.وقد عبر البعض بأنه عندما يبدأ بسرد توقعاته الواحدة تلو الأخرى، يشعر عندها بشيء من الراحة النفسية، خصوصاً إذا أيده الآخرون في توقعاته.

إن شيئاً من التوقع قد يكون ذا فائدة لكونه منفذاً للتنفيس، بما يعيد للفرد هدوءه وسكينته ويخلصه من حالة تناشز فكري قد تنتابه إذا ما واجهته مسألة غامضة لا تعرف مساراتها ونتائجها، أو موقف يتنافى مع ما يحمله من أفكار وآراء وقيم، أو رغبة في إيجاد أكثر من احتمال لحل معضلة مركبة الأبعاد. ولكن عند المبالغة في التعويل على التوقعات، إلى الحد الذي تصبح فيه مرجعاً للفرد في سلوكه وعلاقاته واتخاذ قراراته، فإن من المرجح أن تكون لذلك تبعات نفسية واجتماعية وحضارية سلبية. وليس في افتراضنا هذا من مبالغة، لأن المجتمع الذي تسوده التوقعات الدفاعية بدل الاستنتاجات الواقعية، لا يعدو كونه مجموعة بشرية تعيش في متحف للتأريخ.وللأسف، فإن غموض الأفق السياسي وتفشي العنف الأعمى واختلاط المعايير السلوكية والتبدل السريع للقيم، قد أربك الذاكرة العراقية إلى الحد الذي أصبحت فيه فجواتها المعلوماتية تُسد بالهروب الدفاعي إلى عشوائية التوقعات بدل الركون المتريث إلى عقلانية التحليل.

إن إعادة تأهيل هذه الذاكرة الجريحة، يتطلب عصراً عراقياً جديداً، تشاع فيه المعلومة الصادقة إلى جانب الخبز المغموس بالكرامة.فلا يستعين عندها إنساننا بحيل التفكير الوسواسي الغارق في غيبية التوقعات، بل تصبح (الحقيقة) ثمرة متداولة بين الجميع، يقطفها القاصي والداني، وسط أيام يستعيد فيها هذا الوطن قيمة غالية سرقت منه في خضم سنوات الاستبداد والاحتلال والفساد:قيمة (الثقة بالعقل)، بوصفه –أي العقل– المرجع الأسمى لتحليل الأحداث والظواهر، والتنبؤ بها، وصولاً إلى التحكم العاقل بمسارات تطورها.

في سيكولوجية الأم العراقية

المعتقدات التقليدية الشائعة عن الحمل والولادة والرضاعة

علي عبد اللطيف الخزرجي

تتراكم لدى الأفراد في المجتمع آراء وأفكار يتناقلونها عن مختلف الموضوعات الحياتية، فيتكون لديهم (خزين) أو (موروث) شعبي، يطلق عليه اصطلاحاً بـ(المعتقدات التقليدية الشائعة)، التي يمتزج فيها الجانب المعتقدي بالسلوك الواقعي.ويقصد بالمعتقد الشائع: (صورة فكرية اجتماعية المنشأ يحملها الفرد، وتعد غير عقلانية، وشائعة بين أفراد الجماعة، وتؤثر في سلوك حاملها، وتصطبغ في كثير من الأحيان بالخرافة، وليس لها من دليل علمي يسندها). وهذه المعتقدات لا يمكن عدها حالة عقلية ثابتة لا تقبل التغيير لدى الفرد أو الجماعة التي تتبناها، فالملاحظ أن أي تغيير اجتماعي يؤدي إلى تغيير في المعتقدات الشائعة أو اختفائها في بعض الأحيان. ويمكن تلمس هذه الحقيقة لدى كل المجتمعات عند مقارنة ما كانت تحمله من معتقدات شائعة قبل مئة سنة، مثلاً، بما لديها في الوقت الحاضر.

إن زعزعة المعتقد أو التخلي عنه ليس بالأمر اليسير، بل قد يحصل نوع من الثبات والاستمرار عليه بالرغم من اقتناع الفرد بعدم صحته.إن سر هذا الثبات قائم على أساس أن للمعتقد التقليدي وظيفة تقديم الحلول للمشكلات التي يجابهها الفرد في الحياة دونما حاجة إلى جهد كبير، ودون أن يتعرض إلى الارتباك والقلق.فضلاً عن أن محاولة الفرد للتشكيك بالمعتقدات الشائعة أو قبول ما يناقضها، قد يعرضه إلى الاتهام بالتطرف أو الشذوذ عن الجماعة، مما يؤدي إلى رفضه.وقد بينت الكثير من الأبحاث أن رفض الجماعة للفرد يعد من أقسى أنواع العقاب له.

ومن خصائص هذا المعتقد أنه لا يعد شائعا إذا عبر عنه فرد واحد ليس له سند اجتماعي.كما أن الوصول إلى المعتقد بصورته الكاملة قد لا يتحقق من خلال قول شخص واحد، إذ غالباً ما يقول كل فرد جزءاً من المعتقد، ولكن الوصول إلى الشكل الكامل له لا يتم إلا من خلال جمع الأجزاء من جميع الأفراد.

وكثير من هذه المعتقدات الشائعة يغلب عليها الطابع الخرافي، أو هي تتعلق بالظواهر غير المحسوسة.ففي الأحداث التي يكون فيها للفرد نصيب ضعيف من السيطرة، كالحروب والأمراض والحمل، فإنه يلجأ إلى القوى الخفية في التسبيب والعلاج. لكن اعتماده على القوى الخفية يصبح أقل في الأحداث التي يمكنه السيطرة عليها. فلجوء الإنسان إلى هذه القوى يفسر على أساس محاولته التكيف للعالم الخارجي ومن ثم السيطرة عليه بإسقاط ذاته لا شعورياً عليه.فيعمد إلى أن يصور لنفسه الواقع غير الملموس للقوى الخفية ملموساً.فهو يحيل ما هو غير محسوس إلى كيان ملموس يحس بوجوده الحقيقي.

إن هذه الخصائص التي أشرنا إليها أعلاه يمكن أن تنطبق على مختلف أنواع المعتقدات الشائعة عن ظواهر الحياة، ومنها تلك المعتقدات الخاصة بظواهر الحمل والولادة والرضاعة، والتي تتصف بخاصيتين أساسيتين:إنها غير قائمة على أساس علمي، وإنها مألوفة لدى معظم الحضارات، البدائية منها والنامية والمتقدمة.فلدى أبناء غينيا الجديدة مثلاً، يشيع المعتقد الآتي عن الحمل: (حرام على المرأة الحامل أن تأكل زوجاً من الموز خوفاً من أن تلد توأماً، وحرام عليها تقطيع السمك أو الخشب بسكين أو فأس خوفاً من أن تقطع أحد أطراف وليدها). أما في البلدان الأكثر تطوراً، كاليونان مثلاً، فتنصح الحوامل بألا يتناولن أطعمة معينة في بعض الأيام التي تحل فيها ذكرى دينية معينة، لأن الطفل حسب هذا المعتقد سيولد وعلى جسمه بقع تشبه في شكلها الطعام الذي تناولته الأم الحامل في ذلك اليوم، كأن يكون بشكل عنقود عنب أو فاصوليا أو غيرها.وهناك اعتقاد في ماليزيا بأن المرأة الحامل إذا ازدادت جمالاً في أثناء مدة الحمل فإنها ستلد فتاة، وإذا هزلت وذبل جمالها ستلد ولداً.

ونجد في أمريكا، وهي في مقدمة البلدان المتقدمة تكنولوجياً، أمثلة كثيرة لهذه المعتقدات.ففي منطقة (أوزارك) في (ميسوري) مثلاً، يشاع بين أفراد هذه المنطقة أن جنس الوليد يتقرر بمدى القوة الجنسية لأي من الأبوين.ويجب على المرأة الحامل أن لا تنظر إلى جسد الميت لأن ذلك يؤثر في الجنين، بل قد يؤدي إلى ولادته ميتاً.ويلف المولود بقميص والده لأن ذلك يجلب له الحظ.والطفل الذي يولد ليلة عيد الميلاد يعيش سعيداً، والذي يولد عندما يهل القمر فإنه سيكون قوياً في مستقبل أيامه.

أما في مجتمعنا العراقي، فقد جمعت دراسة (الكناني) في عام ١٩٧٩ مجموعة من المعتقدات الخاصة بالحمل والولادة والرضاعة، بلغ مجموعها(٢٢٣) معتقداً، من بينها (١٢٩) معتقداً شائعاً.وبعد تحليل هذه المعتقدات، تبينت جملة أمور، فيما يأتي أهمها:

١- الاعتماد على (الخبرة) بوصفها دليلاً على فاعلية العلاج.فالرضيع في أيامه الأولى يسقى بالماء الدافئ مضافاً إليه السكر (القنداغ) ومادة الكمون عندما لا يكون حليب الأم جاهزاً لإرضاعه به. والمعتقد الآخر، إذا أصيب الرضيع بزكام، يوضع في أنفه بضع قطرات من حليب الأم من أجل تسهيل تنفسه.والمعتقد الثالث، إذا تخاصمت الأم المرضع، عليها أن تتناول قليلاً من الملح حتى لا يؤثر انفعالها في حليب الرضيع.فمثل هذه العلاجات وغيرها كثير، يعتمد عليها في العلاج سواء قبلت طبياً أم لم تقبل.

٢- تعالج بعض الحالات المرضية التي تصيب الحامل أو المرضع أو الوليد، بواسطة الربط غير المنطقي بين الحالة المرضية و(عوامل خارجية) تكون (سببا) في الشفاء.فالرضيع الذي يصاب بالحصبة مثلاً، يلبس ثوباً أحمر حتى يمتص حمرة الحصبة.والرضيع الذي يصاب باليرقان، يلبس بيده (خرزة كهرب) حتى تمتص كل صفرة اليرقان من جسمه فيشفى.

٣- بروز الجانب (الخرافي) في المعتقدات بنسب ملحوظة. مثلاً: المرأة الحامل، إذا شاهدت أفعى واقفة فإنها ستلد ولداً.أما إذا تحركت الأفعى، فستنجب أنثى.والرضيع الذي يمص إبهام رجله يكون ذكياً مستقبلاً.ويجب أن يطعم الرضيع العسل منذ ولادته ليكون شاطراً.

يلاحظ من مضامين هذه المعتقدات أن البعض منها يحتاج إلى دراسة وتمحيص لمعرفة مدى صحتها، تلافياً لحدوث أضرار مباشرة أو جانبية على صحة الطفل أو الأم.ولذا يجب التنبه إلى أخطار مثل هذه المعتقدات على تنشئة الجيل في مجتمع يؤكد كثيراً أهمية التربية العائلية.ويمكن للمسؤولين في ميادين الرعاية الصحية الإفادة من مثل هذه الدراسات في إعداد برامج توعية طبية عن الأساليب الصحيحة التي ينبغي اتباعها في موضوعات الحمل والولادة والرضاعة، والتطرق إلى المعتقدات الشائعة الخاطئة وأضرارها، والحث على تجنبها.